قرائن نبوغ العلاّمة الحسن بن مسعود اليوسي في التشبيه

الدكتور السعيد أهرو

أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش

براهيم إبراحن

طالب باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش.

مقدمة:

بسم الله الرحم الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم كثيرا وبعد:

فإنّ التشبيه لدى اليوسي يشكل حلقة وصل بلاغية ومعرفية تربط القول بالواقع كالأمثال أو تربط النظري بالتطبيقي المحكم كالحكمة، وقد نظر إلى التشبيه باعتباره مولّداً للمعاني الجديدة التي تعين الأذهان على استيعاب الصور وتقريبها، ولهذا كان التشبيه عنده بمثابة مولّد للصور الجميلة وموصل بين الباطن والظاهر وبين الجلي والخفي من المعاني، وبهذا تبرز خلفية اليوسي الإشارية الصوفية، التي جعلته يبدع في تشبيهاته ويبتعد عما هو مكرّر وتقليدي، وهذا يعكس فكر اليوسي الموسوعي الغني، ونبوغه السنيّ، ودقة ذوقه وسعة معرفته بمكامن الجمال ولهذا سنعرض فيما سيأتي لمفهوم التشبيه لدى اليوسي وغيره وسننتقل لعرض أمثلة تحليلية تقف بنا عند نبوغ هذا العلم الفذّ.

مفهوم التشبيه:

قال اليوسي رحمه الله: المثل هو قول يرد أولا لسبب خاص، ثمّ يتعدّاه إلى أشباهه فيُستعمل فيها شائعاً ذائعاً على وجه تشبيهها بالمورد الأول؛ غير أن الاستعمال على وجهين:

أحدهما: أن يكون على وجه التشبيه الصّريح. كقولهم:" كمجير أمّ عامر"..

الثاني: أن لا يكون على وجه التشبيه الصريح كقولهم: الصّيْفَ ضَيّعْتِ اللّبنَ"..

أمّا الوجه الأول فهو تشبيه من التشبيهات، إلاّ أنّه سار وذاع في بابه فعُدّ مثلاً سائراً لما عرفت من أنّ التشبيه كلّه تمثيل.

أمّا الوجه الثاني فهو في مورده لا تشبيه فيه، ولكنّه يستعمل في مضاربه على وجه تشبيهها بالمورد من غير تصريح بالتّشبيه، بل على أن يستعار اللّفظ المستعمل في المورد الأول للشيء الشّبيه بذلك...[1] مفهوم هذا القول أنّ التشبيه لدى اليوسي هو علاقة المشابهة بين حالتين وموقفين، سواء صرح المتكلم بتلك العلاقة بالأداة أو بالصفة، أو قام بإضمارها عن طريق استعارة حكمة أو قول من حالة سابقة للإشارة إلى حالة لاحقة.

وبعبارة موجزة أنّ جوهر التشبيه لدى اليوسي هو التمثيل، أي تصوير المعاني المجرّدة بالصور الحسّية.

يقول صاحب الجوهر المكنون:

تشـــــبيهُنا دلالـــــةٌ علـــــى اشـــــتراك أمْـــــرين فـــــي معنـــــىً بآلـــــةٍ أتـــــاكْ[2]

1- اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم،ج1،ص 21.

2- الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، للعلامة عبد الرحمن بن محمد الصغير الأخضري(920ه، 983ه) ط 1 ، 2013، دار ابن الجوزي، القاهرة، ص، 32.

ويقول عبد القاهر الجرجاني في "أسرار البلاغة": اعلم أنّ الشّيئين إذا شُبِّه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين؛ أحدهما: أن يكون من جهة أمر بيّن لا يُحتاج فيه إلى تأوُّل. والآخر: أن يكون الشَّبَه محصّلاً بضرب من التّأوّل.[1]"و التشبيه تمثيل يصوِّر المشبه في صورة المشبه به لصفة موجودة فيهما أو في أحدهما، أو مقدّرة في أحدهما، موجودة في الآخر(...) وذلك أن يشترك الشيئان في صفة هي في أحدهما أغلب وأجلى، فإذا شبِّه الأخفى بالأجلى في باب التّحسين كان ذلك مدحاً للأجلى[2]. ويقول ابن رشيق القيرواني في هذا الصّدد أيضا: التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أومن جهات كثيرة، لا من جميع جهاته، لأنّه لو ناسبه مُناسبةً كلّية لكان إيّاه؛ ألا ترى أنّ قولهم: "خدٌّ كالوَرد" إنّما أرادوا حُمرة أوراق الورد وطراوتها، لا سوى ذلك مِن صُفرة وسطه وخُضرة كمائمه، وكذلك قولهم: "فلانٌ كالبحر، وكاللّيث" إنّما يُريدون كالبحر سَماحة وعِلماً، وكاللّيثِ شجاعة وقَرماً، وليس يُريدون مُلوحة البحر وزعوقته، ولا شتامةَ اللّيث وزهومته[3] . فالشّبهُ في هذا كلِّه بيّنٌ لا يجري فيه التّأوّلُ ولا يفتقر إليه في تحصيله، وأيُّ تأوّلٍ يجري في مُشابهة الخدِّ للورْد في الحمرة وأنت تراها ههنا كما تراها هناك؟ وكذلك تعلم الشّجاعة في الأسد كما تعلمها في الرّجل[4].

يقول الدكتور السّعيد أهرو:

فالتّشبيه إذاً هو نعتُك شيئاً بِصِفة مّا، مُبيّناً إيّاها من خلال مقارنتها بمثلها عند شيء آخر هو أشهر وآكد في هذه الصّفة المشتركة بينهما؛ فهب أنّك تُريد بيان البرد بصفة: حزِّ الشَّوى،[5] أحَزُّ من المُدْية؛ فتقولَ في النّهاية: بَرْدٌ يحُزُّ الشَّوى مِثلَ حزِّ المُدى.[6]، والتّشبيه تشبيهان: تشبيه تحقيق وتشبيه تقدير، فالأول يكون فيه التشبيه بين شيئين متّفقين في نفسيهما كالجوهرين والسّوادين، وليس ذلك بالصّناعي، والثاني: ما كان التّشبيه فيه مُتضمّناً لثلاث أشياء: مشبّهٌ ومُشَبّه به ومعنىً يجمعهما، وهو وجه الشَّبه[7]. يقول الدكتور عبد الوهاب الأزدي: وعلى أساس من هذا الفهم، يكون تشبيه التّقدير أدخل في الصّناعي أو في حدود "الفنّ" الذي يقوم على الجِدّة والاختراع، وينطوي في ذات الوقت على قيمةٍ جمالية.[8]وفائدة التشبيه البيان مطلقاً ؛ فإنّما نُشبِّه مُشَبّهاً بمُشبّه به من أجل بيانه وإيضاحه، لأنّ الأشياء تَبينُ بأشباهِها[9].

ومن خلال هذا العرض لتعاريف العلماء السابقين للتشبيه ولتعريف اليوسي، يتبيّن لنا أنّ اليوسي أسّس نظرية تشبيهية متكاملة مركبة، فالتشبيه عنده هو أساس التفكير الذي يولّد الحكمة والمثل المتضمّنان للتشبيه خفيا كان أو بارزاً . وبهذا يتبين نبوغ اليوسي وتفرّده بهذه المزيّة، وفيما سيأتي سنتناول بعض القرائن التي تؤكّد نبوغه أكثر.

1- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ت/ محمد الفاضلي، ط2005.1، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ص 70.69.

2- الوافي في نظم القوافي، أبو البقاء الرندي، تقديم وتحقيق محمد الكنوني، رسالة جامعية مرقونة، كلية الآداب، الرباط، السنة الجامعية: 1973- 1974.

3- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ص286.

4- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ت/ محمد الفاضلي، ط2005.1، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ص، 70.

5- الشَّوى: اليدان والرِّجلان وأطراف الأصابع وقَحفُ الرّأس.

6- إضبارة الدروس الأدبية، الدكتور : السعيد أهرو، الطبعة الأولى، 2023، مطبعة : SO- ME.PRINT AGADIR، ص، 42- 43

7- العيار، ص، 76.

8- الدكتور عبد الوهاب الأزدي، البيان والبيانية، ص، 230.

9- إضبارة الدروس الأدبية، الدكتور : السعيد أهرو، الطبعة الأولى، 2023، مطبعة : SO- ME.PRINT AGADIR، ص 48.

القرائن التشبيهية لنبوغ اليوسي

1- قرينة:

قد أورد اليوسي التشبيه في مواطن كثيرة، ومن ذلك قوله:

كـــأنّ فضـــول الـــرّقم حـــين جعلنهـــا غـــــدياً علـــــى أُدمِ الرّجـــــالِ عُـــــذوقُ

أي؛ نخلات،جمع عَذق، وهو النّخلة..أو قِنوانُها، وهو تشبيهٌ مشهور عند القدماء، يشبّهون الحمول والبرود المرقومة فيها بالنّخيل إذا أينع ثمرها فاحمرّ واصفرّ.[1]

ضبط التشبيه. فالمشبَّه كما حدّده اليوسي هو الحمول والبُرود المرقومة فيها، والمُشَبَّهُ به هو عذوق النّخيل. وهو لم يشر إلى أداة التّشبيه ونوعه، وإنّما مرّ عليه مرور الكرام، وسأحاول الوقوف عليه.

أقول: المشبّه فضول الرّقم وهي آثار ضربات السّيوف على الجسد(الجراح المثخنة بالدّماء)، والمُشبّهُ به هو عُذوق النّخل (قنوانُها)، وأداة التّشبيه هي: كأنّ، ونوع التشبيه هو: (تمثيل). فالمُشبَّه مركّبٌ حيثُ نرى مشهد آثار السّيوف المتعدّدة على أجساد المقاتلين، والمشبّه به مركّبٌ حيث نرى مشهد عناقيد النّخل متدلّية، ووجه الشّبهِ مركّبٌ حيث نرى مشهد تجمّع الجروح على أجساد الرّجال كتجمّع الثّمار في العناقيد المتدلّية.

إذن اليوسي يُشبِّه الآثار التي تتركها السيوف على أجساد الرِّجال في المعركة بعناقيد النّخيل المُتدلّية والنّاضجة، والبديع في هذا التّشبيه هو أنّ تلك الآثار على أجساد المقاتلين اعتبارٌ وحظوةٌ وافتخار، ودلالة على البأس وقوّة الشكيمة والشّدّة، والوصول إلى مرحلة النّضج في القوّة مثل ثمار النّخيل التي وصلت مُنتهاها وهو النّضج والتدلّي، وهذا التّشبيه يشكّل قرينة تدُلُّ على نبوغ اليوسي، حيث أنّه قام بتصوير الجسد المثخن بالجروح الدّامية وسط المعركة بأعذاق النّخيل، وهي صورة بهيّة تخرج بِنا من سياق الحرب إلى سياق الجمال كما لا يخفى، ولاختلاف الأشياء المكونة للتشبيهات وتنوُّع أجناسها واجتلاب بعضها لبعض مذهب جمالي بديع، يقول الجرجاني: "إن لتصوُّر الشبه من الشيء في غير جنسه وشكله، والتقاط ذلك له من غير محلّتهِ، واجتلابه إليه من الشقِّ البعيد باباً آخر من الظرف واللّطف، ومذهباً آخر من مذاهب الإحسان لا يخفى موضعه من العقل"[2]

فهذه الصّورة التي قُدّمت في هذا المثَل مأخوذة من شيءٍ مغايرٍ لها ولذلك قدّمت لنا الجمال اللّطيف.

فهي تقدّم فخر المقاتلين وشجاعتهم وبأسهم حتى إنّ الجراح على أجسادهم كعناقيد النّخيل المتدلّية، حيثُ يصير السّيف كآلة حصاد تنتج ثماراً من الجروح المثخنة على أجساد المقاتلين، وهذه شجاعة قلَّ مثيلها.

2- قرينة:

يشكّلُ المَثلُ الآتي قرينة بيانيّةً على نُبوغ اليوسيّ، حيثُ بيّنَ المَثَل وشرَحه لغوياً وبيانياً، وهذا المثلُ هو قوله: "إنّه لَذو بزلاء"، قال اليوسي، البزلاء الرأي الجيّد؛ وهو مأخوذ من البُزول، يقال: بزل ناب البعير إذا انشقّ وطلع؛ وبزلتُ الشيء: شققْتُه فتبزّل، فالبَزلاَء: الرأي الذي ينشقّ عن الصّواب، ويقال: "رجلٌ بازلٌ إذا احْتَنك، تشبيهاً بالبازِل من الإبل".[3]

قال أبو عبيد البكري: " وقولهم: "إنّهُ لذو بزلاء"، فسّرَه العلماء على وجهين؛ قالوا: البَزلاءُ: الرّأي الجيّد الذي ينشَقُّ عن الصّواب. مأخوذ من بزَل نابُ البعير إذا انشقّت عنه لِثّتُه.

1- زهر الأكم، اليوسي،ج1، ص 88.

2- الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمد الفاضلي،ط، 2015/ المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص،98.

3- زهر الأكم، ج 1، ص، 120

قال الرّاعي[1]:

مِـــنْ أمْـــر ذي بـــدوات لا تـــزالُ لـــه بَـــزْلاءُ يَعْيَـــى بِهـــا الجثامـــة اللّبـــد[2].

ويقال رَجُلٌ بازِلٌ إذا احتنكَ، تشبيهاً بالبازل من الإبلِ الذي كمُلتْ سِنُّه واستوفى قوّته.

والوجه الثاني: أنّ البَزلاّء الدّاهيةُ العظيمة، يقال: فلانٌ نهّاضٌ بِبَزلاء إذا كانَ مُطيقاً لِلشّدائد.[3]

وقد ورد عند ابن السّكّيت كالآتي:[4] "و "إنّهُ لَذو بزلاء": إذا كانَ ذا رأي وحزم.

قال الرّاعي:

مِـن أمْـرِ ذِي بَـدَوَاتٍ، لاَ تَـزالُ لَـهُ بَـزْلاءُ يَعْيـــاَ بِهـــاَ الجَثّاَمَـــةُ اللُّبَـــدُ.

حلّل اليوسي هذا المثَل وبيّنَهُ وذلك من خلال شرح غوامضه اللغويّة وتحديد ما فيه من البيان، حيث شبّه الرّجل المحتنك بالبازل من الإبل.

فالمشبَّه بناءً على هذا هو الرّجل الموصوف والمضمر في هاء (إنّه). وأمّا المُشبّه به فهو (البازل من الإبل) وهذه الصّورة التشبيهيّة تمّ الإتيان بها للدّلالة على القوّة والشدّة التي تمثّل وجه الشّبه بينهما.

والتّشبيه ضمنيٌّ هنا. والمثَلُ فيه مدْحٌ لرجاحة عقل الرّجلِ وسدادِ رأيه وانسياب حكمته وتحقُّقِ صوابه.

3- قرينة:

أورد اليوسيّ هذا المَثل: "إنّه لساَكن الرّيح"، مثلٌ للرّجل الوادع، وهو في الأصل إمّا مُشبَّه بزمَنٍ قد سكنت رِيحُه وهدأت زَعازعُه[5]، فورَد مورِد التّمثيل؛ وإمّا مُشبّهٌ بالرّيح السّاكنة عن الاضطراب، وهو ضربٌ من التّجريد.[6] وهذا المثَلُ مُقتبَسٌ من قوله تعالى: (إِن يَشَاَ يُسكِنِ الرِّيَحَ فَيظْلَلنَ رَواَكِدَ على ظهْرِه، إِنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبّاَرٍ شكُورٍ)[7].

يقول الجرجاني متحدّثاً عن حركة التّشبيه الحاصِلة في هذا المَثل: " واعلم أنّه كما تُعتبر هيئة الحركة في التّشبيه فكذلك تُعتبر هيئة السّكون على الجملة وبحسب اختلافه نحو هيئة المضطجع وهيئة الجالس ونحو ذلك، فإذا وقع في شيء من هيئات الجسم في سكونه تركيب وتفصيلٌ لطف التشبيه وحسن".[8]

وهذا المثل دليلٌ على براعة اليوسي، وقرينة إضافية لنُبوغه وسُمُوّ بيانه، واليوسي قد أبدع عند الإتيان بهذا المثل لكونه يتناول قصد الجرجاني في الاستشهاد المتقدّم.

1- عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النّميري، أبو جندل (نحو 40ه- 95ه/ 660م- 714م)، شاعر من أبرز فحول المحدثين في العصر الأموي، لقب بالرّاعي النّميري لكثرة وصفه الإبل في شعره حتى غلب عليه هذا اللّقب واشتهر به.

2- ذو بدوات: ذو آراء، وهو وصفٌ للرّجل الحازم.- والجثامة: البليد، - واللّبد: اللازم لموضعه

3- أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري (ت 487ه)، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، المحقق، إحسان عبّاس،الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1971م، ص 147.

4- أبو يوسف يعقوب بن إسحاق،ابن السّكيت، (ت 244ه)، كتاب الألفاظ، المحقق، فخر الدّين قباوة، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1998م، ج1،ص 132

5- هدأتْ زعازِعُه: سكنت اضطراباته النفسية واستقرت أوضاعه وذهب قلقه ومخاوفه.

6- زهر الأكم، اليوسي، ج 1، ص، 122،121.

7- سورة الشورى، الآية، 33.

8- الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 139.

فالمشبّه هنا في المثل "إنّه لَساكِنُ الرّيح"، هو الشخص المضمر في هاء (إنّه)، أي ذلك الشخص المخفي، وأمّا المشبّه به فهو (ساكن الرّيح). وأمّا أداة التّشبيه فهي غير موجودة تصريحا، وأمّا وجه الشّبه بينهما فهو السّكون والهدوء، لذلك فهو تشبيه مضمّنٌ في السّياق (ضمنيّ)، فالشّخص الموصوف بهذا السكون هادئ وحكيم، وساكنٌ عن النّزاعات والصّراعات مثل سكون الرّيح العاتية الشديدة، فهذا "الشخص" بقوّةِ هدوئه وحكمتِه يُهدّئُ كلّ ما هو ثائرٌ حوله وتستقرُّ الأوضاع بفعله، فبقدرته تسكُن الأشياء والنُّفوس الهائجة كما تسكُن الرّيحُ وتهدأُ بعد ثورانها، وقد استخدم العلامة اليوسي هذا التّشبيه لمدح هذه الشخصية القيّادية ومن كان على شاكلتها ممّن يُنادي بالسّلام والسّكون، وينبذُ الخلافات والصّراعات الدّاخليّة والخارجية.

4- قرينة:

سنورد هذ المثل الذي أورده اليوسي في كتابه باعتباره قرينة على نُبوغه وفَرادَتِه، وهذا المثل هو: "إنّه لواقعُ الطّائر"، مثَلٌ للرّجل السّاكن الأمر، وهو في الأصل إمّا مُشبّه بالبعير يقع عليه الطّائر وينزع ما عليه من القراد، فيسكن البعير استلذاذاً لذلك ولا يتحرّك لئلاّ ينفر الطّائر فيطير عنه، كما يقال في المثل الآتي: كأنّ على رأسه الطّير؛ وإمّا مُشبَّه بالطّائر الواقع في سكونه على ضرب من التّجريد، كما مرّ في ساكن الرّيح.[1] ومعنى هذا المثل يشابه المثل السابق وقد حدّد اليوسيّ في هذا المَثل التّشبيه من خلال صورة الرّجل السّاكن الثابت وصورة البعير أو الطّائر المستقرّ في مكانه، والمشبّه هنا هو الضمير المخفي في هاء (إنّه)، والمشبّه به هو (واقع الطّائر)، ووجه الشّبه هو الثّبات على الشيء والحصافة في الرأي ومعرفة دقائق وتفاصيل الأمور. وأما الأداة التشبيهيّة فهي خفية غير بارزة، وبهذا يكون التّشبيه ضمنيا. ويكمُن الجمال في هذا المثل من خلال نسج الصّورتين وحبكهما ليخلُقا لناَ بهاءً معلوماً وبياناً حسناً، والمثل يرتدُّ بنا من خلال دلالته الثقافية إلى ماضي العرب حيثُ كانَ الزّاجرون يتبعون الطّيور ويراقبون تحرُّكاتها واتجاهاتها قصْدَ التّنبُّؤ بالوقائع والأحداث بناء على حركاتها وسكناتها، وهذه الصُّورة تجعل المَثل يجعل المُشبّهين بالطّيور السّاكنة يتّصفون بصفات الفراسة الدقيقة والرّأي الحصيف والبصرِ النّافذ إلى الخبايا والخفايا.

5- قرينة:

قال العلاّمة اليوسي: "واعلمْ أنّكَ متَى رُمْتَ النُّهُوضَ إِلَى هَذاَ الأَمْرِ بِلاَ عُدَّتِهِ تَكُونُ كاَلمَجْبُوبِ يَرُومُ أَنْ يَتَزَوَّجَ لِيُولَدَ لَهُ ولَدٌ صاَلِحٌ يدعُو لَهُ أوْ لِيُكثِرَ الأُمَّةَ المُحَمّدِيّةَ بِنَسْلِهِ[2]

المجْبُوب: هو الرّجل الذي استؤصِل إحليله فلا قدرة له على الإنجاب.

يَرُومُ: يقصِد ويُريد.

عُدّتَه: العُدّة، الوَسيلة.

معناه أنّ الذي يتحمّل شيئاً هو غير مؤهّل له ويدخل نفسه في متاهات لا يعرفها فهو مثل الزّوج الذي يعلم أنّه عقيم، ومع هذا يتزوّج طمعا في الأولاد، والسبب منعدم وهو (القدرة) فكيف يمكن أن تكون هناك نتيجة التي هي (الوّلد) كذلك، فبوجود السبب تحصل النتيجة وبانعدامه تنعدم، وإن كان الإعطاء والمنع مردّه إلى الله، ولهذا فهذا النصّ البديع يعتبر نموذجاً مغربياً فريداً للكتابة الواعية الواقعية التي تتضمّن وعي اليوسي ونبوغه وحضور بديهيته وبراعته البلاغية وحكمته الفذّة، وقد قام فيه بشرح الألفاظ الغامضة التي تحتاج إلى الشرح، ولكنّه لم يشر إلى الصورة التشبيهية الواردة في النّص والتي هي من قبيل التشبيه التّمثيلي، حيث شبّه العلاّمة اليوسي صورة الرّجل الذي

1- اليوسي، زهر الأكم، ج 1، ص، 127

2- المحاضرات، 1/276.

يتقدّم لتحمّل مسؤولية جسيمة وأمانة عظيمة لا يعلم جسامتها وهو غير كفء لها، بصورة الرجل الذي يبتغي الولد وهو مجبوب ظاهر العجز، ووجه الشبه هو السعي لتحقيق المرغوب مع وجود العجز المانع،وهذا يجعل تركيب هاتين الصورتين بديعاً وفريداً من قبل اليوسي وهو ما يجعله بحقّ قرينة مؤكّدة ودالة على نبوغه وتميّزه، حيث أنّ التشبيه المركّب من الصور هنا أبلغ من التشبيه المفرد لكونه يتجاوز الذوات ليتناول الأحوال.

5- قرينة:

ومن القرائن والأدلّة البيانية التي تدُلُّ على نُبوغ اليوسي وفرادته استنباطه بفكره الأمثال من الشعر، وهذا يدُلُّ على سبقه غيره في هذا المقامِ وعلى إبداعه وابتداعه الأمثال، ومن هذه الأمثلة المُستنبطةِ قوله: "أَبَى منبِتُ العِيدان أنْ يتغيَّر"

قال اليوسي: أخذْناه من قول جميل بن عبد الله بن معمر العُذريّ:

بَنُــو الصّــالحين الصّــالحونَ ومَــن يَكُــن ... لآبــاءِ صِــدق يَلقهُــم حَيــثُ سَــيّرا

أرَى كــلَّ عُــودٍ نابتــاً فــي أرُومــةٍ ... أبَــى منبِــتُ العِيــدان أنْ يتَغيَّــرا

قال اليوسي شارحاً لغوامض هذين البيتين: "وآباء الصِّدق: آباء الخير والصّلاح والكرم. ومعنى سَيّرَ: أكثر السّير. والمعنى: أنَّ من كان كريم الأصل، رفيع الحسب، جرَى على ذلك حيثما ذهب، وكيفما انقلب. والأرُومةُ بفتحِ الهَمز، وتُضَمّ، الأصل... والجمعُ أرُومٌ.

ويزيدُ توضيح معنى البيت بقوله، وقوله: "أبى منبِتُ العيدان.. إلخ" يريدُ أنّ النّاس أُصولٌ مُختلفة، وأعراقٌ مُتبايِنة، كما في الحديث: النّاسُ معادن، وكلُّ أحدٍ باقٍ على أصلِه: فمن كان مِن أصلِ كرمٍ لم يتَحوّل منه، ومن كان مِن أصلِ لؤمٍ لمْ ينحرف عنه وجعَل النّاس أعْواداً وأعْراقها منابَت على طريق التّمثيل.[1] وقال التّبريزي: يقال فلانٌ ابنُ صِدق إذا كان كريماً مرضيّاً، وليس الصّدق هنا ضدُّ الكذب، والمعنى أنّه يُشبِه أباه، فإن كان صالحاً فهُو صالحٌ وإن كان غيرَ ذلك فهو مثله[2] .

ومعنى المثل: أنّ الأصول والتربية تلعب دوراً مُهِمّاً في توجيه طباع النّاس وأخلاقِهم، فمن كان أصلُه صالحاً كان صالحاً ومن كان أصلُه سيّئاً، ومن خرج عن هذه القاعدة فهو في حكم النّادر.

ففي قوله:

أرى كــلَّ عــودٍ نابتــاً فــي أرومــةٍ ... أبــى منبــتُ العِيــدان أن يتغيَّــرا.

هنا شبّه الإنسان المكتسب لصفات أبيه بعودٍ نبتٍ في أرومة الشّجرة أي أصلُها، فنوعه العُود وطعمه مستَمَدّان من أصله لا يخرجان عنه، ومن يشابه أباه فما ظلم. وهو تشبيهٌ تمثيلي،

فهذا المَثَلُ يدلُّ على إبداع العلاّمة اليوسي وعلى نُبوغه حيث استنبطهذا المثل وغيره من الأمثال الجديدة وأضافها لخزانة الأمثال العربية.

خاتمة:

يتلخص من خلال هذا المقال اليوسي أنّ العلامة اليوسي كان يقوم بتناول النصّ مثلا كان أو شعراً أو نثراً مقدّما شرحه غامض لفظه ليفتح الباب للمتلقّي قصد المشاركة في صياغة معنى النّص، ثم بعد هذه الخطوة ينتقل

1- زهر الأكم في الأمثال والحِكم، ج1،ص،144 .

2- أبو زكريا التّبريزي، شرح ديوان الحماسة، ج1، ص، 114. موقع:ir. eShia . WWW

إلى خطوة أخرى متمثّلة في تقديم المعنى العام الإجمالي للنّص، ثم يشير في النهاية إلى ما يتضمّنه النص من الأسرار التشبيهية البيانيّة، وهو في تحليله هذا يسري في ثنايا النص وجوانبه وعوارضه وداخله وخارجه ويطوّعه كيفما شاء لينتج لنا لوحة صورة إبداعية فريدة، تبيّن نبوغه وتميّزه عن غيره، وقد اعتمد في القرائن المتناولة في هذا المقام التشبيه أساسا للتوضيح والتبيين والإقناع وتقريب الصور المجرّدة إلى الأذهان والأفهام، ولم يعتمده كمجرد تجميل وتزيين فقط، مما يجعل هذا الأسلوب لدى العلامة اليوسي هنا أسلوباً حجاجيا قوياً ذا تأثير ملموس في النفوس المتلقية له، كما أنّ نبوغ هذا العلم يتجلّى في تنظيره لأسلوب التشبيه ثمّ تطبيق تنظيره معزّزا له بشواهد واعتبارات تراثية متينة متصلة بالواقع الاجتماعي، وفي هذا تعليق للبلاغة بالمجتمع وتجاوز للجانب الجمالي الصرف فقط، كما يبرز من خلال هذا المقال تجاوز اليوسي للشكليات البلاغية الخالية من المعنى إلى البلاغة الوظيفية التي تبرز بتوظيف اللغة اجتماعيا، وهذا يبيّن بعد نظر اليوسي لهذا الأسلوب التشبيهي ونبوغه فيه وتوظيفه له على الوجه المقصود. هذا ما تيسّر، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

1- اليوسي، المحاضرات في الأدب واللغة، تحقيق وشرح: محمد حجي و أحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط، 1402ه- 1982م.

2- اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، حققه الدكتور محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط: 2020م.

3- الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمد الفاضلي،ط، 2015/ المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

4- أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري (ت 487ه)، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، المحقق، إحسان عبّاس،الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1971م،

5- أبو يوسف يعقوب بن إسحاق،ابن السّكيت، (ت 244ه)، كتاب الألفاظ، المحقق، فخر الدّين قباوة، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1998م.

6- أبو زكريا التّبريزي، شرح ديوان الحماسة، ج1، ص، 114. موقع:WWW . eShia .ir

7- الدكتور عبد الوهاب الأزدي، البيان والبيانية، المطبعة والوراقة الوطنية، الحي المحمدي، الداوديات- مراكش، ط 1، 2017م.

8- إضبارة الدروس الأدبية، الدكتور : السعيد أهرو، الطبعة الأولى، 2023، مطبعة : SO- ME،PRINT AGADIR.